

الحركة التعلیمیة في مصر

في العصور الوسطی

لحضرة الكتاب الفاضل الأستاذ محمود رزق سليم

المدرس بكلية اللغة العربية

إن مشكلة التعليم في العصر الحديث من أهم المشاكل التي يعانونها المجتمع المصري، اختلفت فيها الآراء، واختلفت المذاهب، وتعايرت النوايا.

وكلما أراد قوم أن يقيموا الدليل على خطأ الآخرين، وفساد ما يذهبون إليه رموهم بأنهم يعيشون بعقول أهل القرون الوسطی، وأنهم يصرون عن مواردهم وينظرون إلى الشعب كما كان ينظر إليه ولا ته حينذاك.

فإذا كانوا يعنون بأهل العصور الوسطی، تلك الدول التي حكمت مصر في العصور المذكورة، وهى الفاطمية والأيوبية والمملوكية؛ فاني أعتقد أن في ذلك تجنياً كبيراً على أهل تلك العصور، وغمطاً لجهودهم في سبيل العلم والتعليم، وإنكاراً لما سجله لهم التاريخ من حسنات وأيام بيض، وحفظوا بها سلسلة العلم موصولة الحلقات، متتابعة الخطوات.

وحقاً إن بيننا وبينهم فوارق جلية، في انظر إلى التعليم، أوحى بها منطق العصر، وسياق الحوادث، ونظم الدولة، فلم تكن هناك - مثلاً - سياسة تعليمية عامة يدعوا إليها الشعب، وينفذها أولو الأمر، ولم تكن الحكومات تقوم بما تقوم به من التعليم، إلا على أنه منحة تمنحها الشعب، وصدقة تتصدق بها عليه، لا على أنه حق من حقوقه يؤدى إليه.

على أن هذه الاعتبارات، على وجاهتها وأهميتها، شكلية، بالنسبة إلى جوهر التعليم، ذلك التعليم الذي كانت سبله ميسرة، وطرقه معبدة، وأبوابه مفتحة، تشيد له الدور، وترد عليها الأموال، وترصد الأواقف، ويتأنق في اختيار أساتذتها، ويوصى بطلابها.

وما خبر الأزهر عنا ببعيد، فقد أسسه الفاطميون، حين أسسوا قاهرته المجيدة، وجعلوا منه منارة للعلم، ومثابة للطلاب، ولا يطعن فيه أنهم اتخذوه منبراً عما ومركزاً هاماً،

للدعاية الشيعية، فالمذهب الشيعي - وإن لم يلتئم مع ما عليه جمهور المسلمين في مصر - لا ينبغي أن ننظر إليه كل هذا النظر الشرر، بل علينا أن ندرسه، ونتفهم كنهه، ونسبر غوره، ونكشف عن مكنون فلسفته، فإذا وصلنا إلى ذلك، بدالنا أنه ذو متات بالفكر وثيق،

وأنه لون من ألوان العلم، وأن دراسته في الأزهر حينذاك، وإقامة داعى الدعاة للتبشير به، واستدراج العقول إليه، كان إحدى النزعات العلمية في ذلك الحين، وإن تأبى عليه جمهور المصريين، ولا مبالغة إذا اعتبرناه المنهج التعليمى أو السياسة التعليمية التي أخذ ملوك الفاطميين أنفسهم بنشرها في البلاد.

ولا ننسى أن الدول العربية – أو الإسلامية – التي قامت في تلك العصور اتخذت من الدين دعامة كبرى تؤسس عليها، وتستند إليها، متوخية في كثير من محاولاتها، النزوع الديني، والاتجاه الاعتقادي، لدى شعوبها ورعاياها، ولهذا كانت مغامرة كبرى من ملوك الفاطميين أن يحاولوا تشييع مصر، تلك البلاد التي كان مركز الشافعية بها وطيدا، وكانت مهجرا ومثوى لإمامها الجليل، حتى وقرفى نفوس كثير من الشافعية أن البلاد بلادهم، وأنهم حكامها، وأنه لا بقاء فيها لحاكم غير شافعي، فكانت مغامرة جرئية لاقت مناهضات كثيرة ومقاومات عدة وكان صلاح الدين الأيوبي أنجح منهم سياسة وأثقب بصرا، إذ أنه سلك إلى استقامة ملكه مسالك عدة. فأقبل على تأييد مذهب الشافعية؛ والتمكين لها؛ وإبادة آثار الفاطميين العلمية؛ وتلك نكبة بلا ريب يشعر بها كل حريص على نزاهة البحث العلمى – أيا كانت فكرته المذهبية – . غير أن صلاح الدين قدم لشعب وللمسلمين من الحسنات، ما قد يكفر عن هذه الزلة